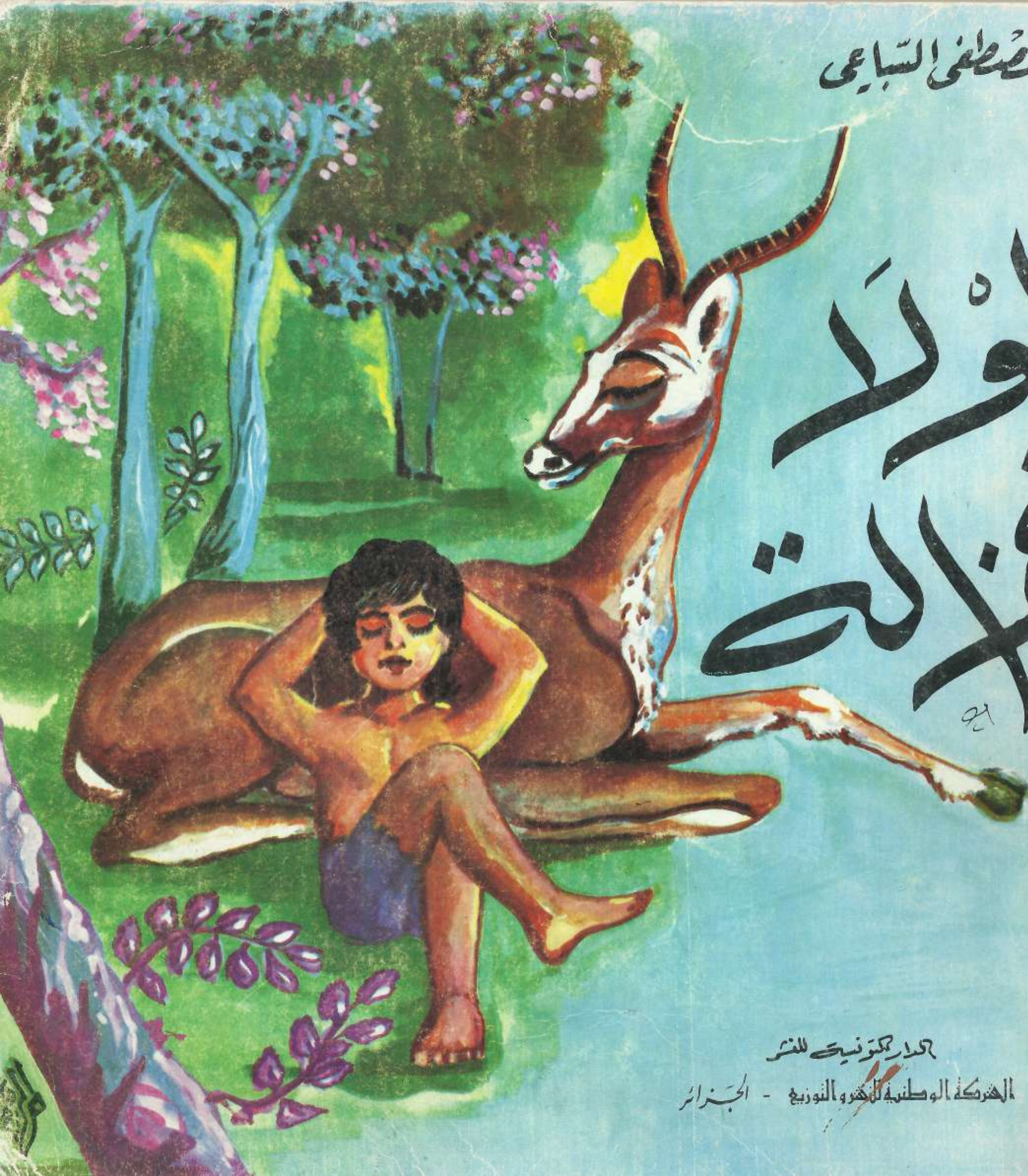
مصطفى السباعي

لولا غزالة



الدار التونسية للنشر
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر

مصطفى السّباعي

لولا غزالة

الدار التونسية للنشر
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر

يُحْكَى أنَّهُ كَانَ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ سُلْطَان جَائِر ، اسْتَغَلَّ عُلُوَّ مَنْصِبِهِ وَجَاهِهِ فِي تَسْخِيرِ شَعْبِهِ لِيُوَفِّرَ لَهُ أَقْصَى مَا يُمْكِنُ مِنْ مُتَعِ الحَيَاةِ وَلَذَائِذِهَا .

وَكَانَ - إِلَى جَانِبِ بَطْشِهِ - مَشْهُورًا بِشَيْئَيْنِ اثْنَيْنِ هُمَا: حُبُّهُ لِلطَّعَامِ، وَالتَّجَوُّلِ .

وَلِوَفْرَةِ الأَنْوَاعِ الَّتِي تُعَدُّ لَهُ كُلَّ يَوْمٍ وَلاَ يُشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ، كَانَ يَقْضِي عَلَى المَائِدَةِ السَّاعَاتِ الطِّوَالَ ، فَكُلَّمَا امْتَلأَ بَطْنُهُ جَـــاءَهُ وَاحِدٌ مِنْ عَشَرَاتِ الخَدَمِ المحِيطِينَ بِهِ وَقْتَ الأَكْلِ بِآنِيَةٍ فَيَسْتَفْرِغ مَا فِي جَوْفِهِ ثُمَّ يَعُود إِلَى الأَكْلِ مِنْ جَدِيدٍ، وَهَكَذَا إِلَى أَنْ يَأْتِيَ عَلَى آخِرِ صَحْنٍ . وَفِي ذَلِكَ



الوقتِ تكُون في انتظـــاره أمـــام بابِ القصرِ عربـةً مذهّبةً يجرُّها جَـوَادَان أَصِيلاَن، فما إِن يُعْلَنَ عنِ انتهاءِ السُّلطان من غَذَائِه حتى يكونَ أَمامَه أربعةُ عبيدٍ، حاملين محفَّةً تنقُلُه الى المرْكبةِ، للقيام بجَولَتِه اليَوْمِيَّةِ وسَط جَمْعٍ غفيرٍ من الحَرَس المدَجَّجين بالسِّلاحِ .

وَذاتَ يومٍ أَمر سائِقَه أَن يبْتَعِد به قَليلاً عنِ القَصْرِ لأَنَّهُ في حاجة للتَّرْفيهِ عن نفسِه بعدَ الإِجْهَاد الشَّديدِ الذي لحِقه في ذلك اليوم. وما إن لبَّى السائق أمْره وســـار به قليلا حتّى أمرَه ثانِيَةً بالوُقوف، ثمّ نزل من المركبة والحَرسُ يتبعونه مُتَسَائلين عن سرِّ هذا النُّزُول المفَاجِئِ الذي لم يَعَوِّدْهُمْ به أبدا، لكنَّ تَسَاؤُلَهُم زال حين شاهدوه بعد مسافةٍ قصيرةٍ يقف أَمام كُوخٍ حقيرٍ، وينظر في تَقَزُّزٍ الى المرأة المُلْتَفَّةِ في أسمالِهـا الباليَةِ، ويلكُزُهَا بصَوْلجَانِه الذَّهَبِيِّ .

انتبهت المرأةُ من نومِهـا مذْعُورةً، ومـا إن رأت السلطـان أمامها حتى هبَّتْ واقفـــةً لا تدري ماذا تصنع، ولعلَّ مَنْظَر خَوفِها وارتِبَاكِها رَاقَ له فصاح فيها صيحة خَلَعَتْ قلْبَها :

- أَوَصَلت بكم الوَقَاحَةُ الى أن تطاوَلْتُمْ على قَصْري، وشوَّهْتُم مَنْظَر نُزُهاتي.

- ولكنَّنَا بَعِيدون عن الطريق، ياموْلاَيَ.

- إِخْرَسِي، وتُكَذِّبِينَنِي أيضا!

- معاذَ اللهِ أن أُكذِّبَ مَلِكنا ومَوْلاَنا.

- إِسمَعي : مثلُ هذا التملُّقِ لا يَنْطَلِي عليَّ، لَئِن عُدتِ مرَّةً أُخرى وَوَجَدْتُـــكِ هنـا فسَوْفَ يَكُون حِسَابكِ عَسِيرًا.

وَبِدُونِ أَنْ يَتَرَقَّبُوا صُدُورَ الإِذْنِ، انْهَمَكَ الحَرَسُ فِي تَهْدِيمِ الكُوخِ بَيْنَمَا عَــادَ المَلِكُ إِلَى مَرْكَبَتِهِ يَتَهَادَى كَالطَّاوُوسِ غَيْرَ عَابِئٍ بِدُمُــوعِ المَرْأَةِ الَّتِي حَاوَلَتْ تَقْبِيلَ رِجْلَيْهِ كَيْ يَرْأَفَ بِالجَنِينِ الَّذِي فِي بَطْنِهَا وَيُمْهِلَهَا عَلَى الأَقَلِّ أَيَّامًا أُخْرَى.



وَبَقِيَتِ المِسْكِينَةُ وحيدةً حَائِرةً في أمرِها شاخِصَةً بِبَصرِها الى السَّماءِ، وَلم تَدْرِ كم مَضى عَلَيْها مِنَ الوقْتِ حِينَ عادَ زَوْجُها حاملا عَلى ظهره حِمْلاً مِنَ الحَطَبِ، وَمَا إِنْ شَاهَد الكُوخَ أَخْشَابا مُبَعْثَرَةً حتَّى أَسْرَعَ يَسْتَوضِحُهَا الخَبَرَ، وَعِنْدَما أَطْلَعَتْهُ عَلَى ما حَدَثَ تَنَهَّدَ تَنْهِيدَةً طويلةً وَقَالَ لَهَا:

- لاَ فَائِدَةَ مِنَ العِنَادِ، الليلةَ يَجِبُ أَنْ نَرْحَلَ.

- وَلَكِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّنِي لاَ أَسْتَطِيعُ قَطْعَ خُطُوَاتٍ فَكَيْفَ وَنَحْنُ لاَ نَعْلَمُ الى أَيْنَ سَنَذْهَب.

- اِتَّكِلِي عَلَى اللهِ فلا مُعِينَ لكِ سِوَاهُ.

وَبَيْنَمَا كَانَتِ الشَّمْسُ تَخْتَفِي وَرَاءَ الأُفُقِ شَيْئًا فَشَيْئًا، كَانَ الرَّجُلُ وَزَوْجَتُهُ يُغَادِرَانِ المدينَةَ، وَمَضَى أَكْثَرُ اللَّيْلِ وَهُمَا سَائِرانِ بِدُونِ هَدَف، لَكِنَّ الزَّوْجَةَ المتْعَبَةَ لم تَعُدْ قَادِرَةً عَلَى مُوَاصَلَةِ السَّيْرِ، فَرَأَى زَوْجُهَا ان يَحُطَّ رَحْلَهُ فِي انتِظَارِ الصَّبَاحِ، وَحَتَّى تَهْدَأَ آلاَمُ زَوْجَتِهِ، لكِنَّ الآلاَمَ أَخَذَتْ تَشْتَدُّ اكْثَرَ فَاكْثَرَ،،، إِنَّهَا سَاعَةُ المَخَاضِ قَدْ دَقَّتْ.

جَزِعَ الرَّجُلُ عَلَى زَوْجَتِهِ، فَأَخَذَ يَتَمْتِمُ، وَكَأَنَّ الأَمْرَ بِيَدِهَا:

- أَفِي هَذَا الوَقْتِ يَاسَعْدِيَةُ؟ وَفِي هَذَا المَكَانِ؟ أَلا تَسْتَطِيعِينَ الانْتِظَارَ قَلِيلاً؟

لَكِنْ أَنَّى لِسَعْدِيةَ أَنْ تَسْمَعَ أَوْ تَرُدَّ وَهْيَ مُسْتَسْلِمَةٌ لِأَوْجَاعِهَا بَيْنَ المَوْتِ وَالحَيَاةِ، تُرَدِّدُ فِي صَوْتٍ خَفِيضٍ يَارَبِّ، يَارَبِّ.

وَاسْتَجَابَ اللهُ لِدُعَائِهَا، فَصَرَخَتْ صَرْخَةً حَادَّةً انْخَلَعَ لَهَا قَلْبُ زَوْجِهَا، ثُمَّ رَاحَتْ فِي إِغْفَاءَةٍ

عَمِيقَةٍ لم تَشْعُرْ مَعَهَا بزوجِها وَهْوَ يُمزِّقُ خِرْقَةً من قِطْعَةِ الغِطَاءِ ، وَيُرَدِّدُ في بِشْرٍ :

الحمدُلله ،،، الحمدُلله ، إنه وَلَدٌ ياسَعْدِية.

ثُمَّ لَفَّ وَلِيدَهُ جَيِّدًا ، وَلَمَّا اطْمَأَنَّ عَلَيْهِ ، التَفَتَ إِلَى زَوْجَتِهِ وَعَيْنَاهُ تومِضَانِ سُرُورًا وَقَالَ لَهَا بِصَوْتٍ يَقْطُرُ رِقَّةً وَحَنَانًا :

- سَتَرَيْنَ كَمْ هُوَ جَمِيلٌ ، لَمْ أَسْتَطِعِ انْتِظَارَ الصَّبَاحِ فَتَأَمَّلْتُهُ تَحْتَ نُورِ القَمَرِ ، ثُمَّ رَبَتَ عَلَى خَدِّهَا وَسَأَلَهَا :

- أَلَا تُرِيدِينَ إِرْضَاعَهُ؟ وَلَمَّا لَمْ تَرُدَّ عَلَيْهِ رَمَى فَوْقَهَا مَا تَبَقَّى مِنْ غِطَاءٍ وَتَرَكَهَا تَأْخُذُ رَاحَتَهَا بَعْدَ الإِجْهَادِ الشَّدِيدِ الذِّي تَعَرَّضَتْ لَهُ ، بَيْنَمَا ضَمَّ ابْنَهُ إِلَى صَدْرِهِ ، وَنَامَ مُسْتَنِدًا إِلَى جِذْعِ شَجَرَةٍ وَهْوَ يُمَنِّي نَفْسَهُ بِصَبَاحٍ مُمْتِعٍ جَمِيلٍ يُعَوِّضُ فِيهِ زَوْجَتَهُ عَمَّا أَصَابَهَا مِنْ عَنَاءٍ .

وَجَاءَ الصَّبَاحُ ... فَانْكَبَّ الرَّجُلُ عَلَى زَوْجَتِهِ يُوقِظُهَا :

- سَعْدِية ... سَعْدِية ... اسْتَيْقِظِي وَخُذِي ابْنك ، فَلَقَدْ حَرَمَنِي من النَّومِ بِصُرَاخِهِ الحَادِّ، وَلَمْ أَشَأْ أَنْ أُزْعِجَكِ رَغْمَ أَنَّهُ كَانَ يَكُفُّ عَنِ الصُّرَاخِ كُلَّمَا قَرَّبْتُهُ مِنْكِ ... سَعْدِية سَعْدِية ،،، أَوَّهْ مَا هَذَا النَّوْمُ ؟ !

وَلَكِنَّ سَعْدِية لَمْ تُجِبْ ، وَلَنْ تُجِيبَ ، لَقَدْ كَانَتْ بُنْيَتُهَا الضَّعِيفَةُ عَاجِزَةً عَنْ تَحَمُّلِ

مَا قَاسَتْهُ ، فَمَاتَتْ تَارِكَةً زَوْجَهَا وَحِيدًا يَعْصِفُ بِهِ الْحُزْنُ لِفَقْدِهَا ، وَتَلُفُّهُ حَيْرَةٌ عَلَى وَلَدِهِ الرَّضِيعِ ، وَبَعْدَ أَنْ دَفَنَهَا حَمَلَ ابْنَهُ وَطَفِقَ يَقْطَعُ الْغَابَةَ عَلَى غَيْرِ قَصْدٍ حَتَّى





هَدَّهُ الإِعْيَاءُ فَاسْتَظَلَّ بِأَكَمَةٍ
يَطْلُبُ قَلِيلاً مِنَ الرَّاحَةِ ،
وَسُرْعَانَ مَا أَخَذَتْهُ سِنَةٌ مِنَ
النَّوْمِ قَطَعَتْهَا عَلَيْهِ حَرَكَةٌ
غَرِيبَةٌ قَرِيبَةٌ ، فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ
يَسْتَجْلِي الأَمْرَ، وَمَا إِنْ تَأَكَّدَ
مِمَّا يَرَى حَتَّى أَحَسَّ بِرَاحَةٍ
عَمِيقَةٍ وَفَرْحَةٍ عَارِمَةٍ، فَرَاحَ
يَشْكُرُ اللهَ مِنْ أَعْمَاقِ قَلْبِهِ
لَقَدْ وَجَدَ ابْنَهُ يُمْسِكُ بِيَدَيْهِ
الصَّغِيرَتَيْنِ ثَدْيَ غَـزَالَةٍ
وَيَمْتَصُّهُ بِسُرُورٍ وَهْيَ سَاكِنَةٌ
مُسْتَسْلِمَةٌ لَهُ اسْتِسْلَامَ الأُمِّ
الرَّؤُومِ . وَمِنْ ذَلِكَ الحِينِ
أَصْبَحَ عَادَةً أَنْ تَمُرَّ الغَزَالَةُ

مرَّتَيْنِ كُلَّ يَوْمٍ ، فِي الصَّبَاحِ حِينَ تَخْرُجُ الى المرْعَى ، وَفِي المسَاءِ حِينَ تَعُودُ مِنْهُ .

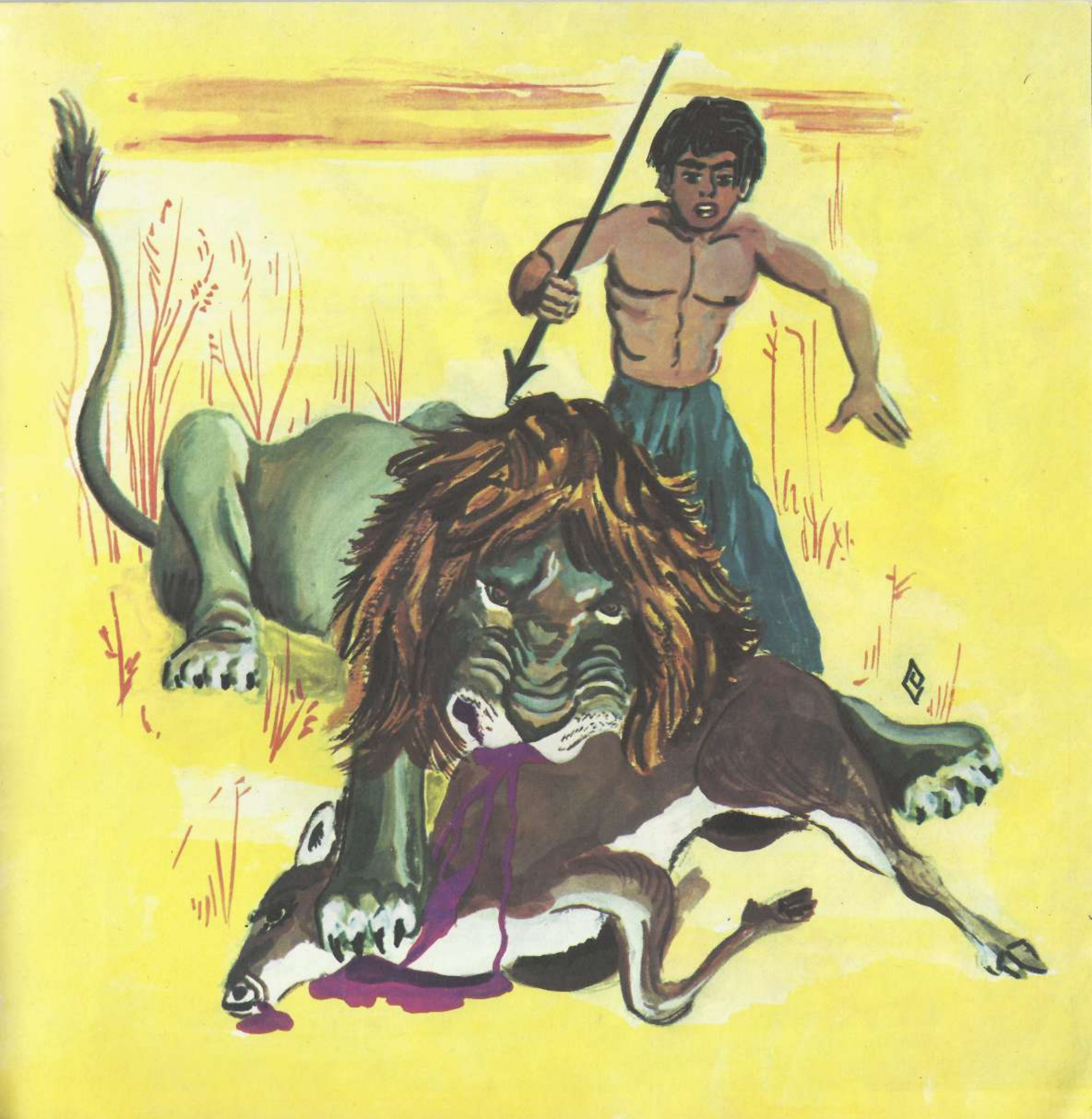
وَمَضَتْ أَعْوَامٌ كَبِرَ خِلاَلَهَا الطِّفْلُ وَتَرَعْرَعَ ، فَنَشَأَ كَامِلَ الجِسْمِ ، مَوْفُورَ الصِّحَّةِ ، إِلَى جَانِبِ جَمَالِ صُورَةٍ ، وَذَكَاءٍ حَادٍّ عَوَّضَاهُ عَمَّا فَاتَهُ مِنْ فُرَصِ التَّعَلُّمِ .

وَرَغْمَ عُزُوفِهِ عَنْ لَبَنِ الغَزَالَـــةِ ، كَانَتِ الأُلْفَةُ بَيْنَهُمَا تَتَقَوَّى يَوْمًا فَيَوْمًا حَتَّى أَطْلَقَ عَلَيْهِ أَبُوهُ اسْمَ (أَلِيف) .تَعَوَّدَ (أَلِيفٌ) أَنْ يُبَكِّرَ فِي النُّهُوضِ، فَيَنْطَلِقُ وَرَاءَ الغَزَالَةِ هُنَا وَهُنَاكَ ، بَيْنَمَا يَذْهَبُ أَبُــوهُ لِلْبَحْثِ عَنْ لُقْمَةِ العَيْشِ ، حَتَّى إِذَا أَذِنَتِ الشَّمْسُ بِالغُرُوبِ عَادُوا جَمِيعًا ، فَتَتَّجِهُ الغَزَالَـــةُ إِلَى مَرْبَضِهَا وَيَرْتَمِي (أَلِيفٌ) بِجَانِبِ أَبِيهِ فَيَتَعَشَّيَانِ وَيَتَسَامَرَانِ قَلِيلاً ثُمَّ يَنَامَانِ .

وَذَاتَ لَيْلَةٍ عَادَ الأَبُ كَعَادَتِهِ ، فَهَيَّأَ نَارًا حَامِيَةً، وَجَلَسَ يَتَرَقَّبُ ابْنَهُ وَالغَزَالَةَ ، وَطَالَ انْتِظَارُهُ حَتَّى بَدَأَ يُسَاوِرُهُ قَلَقٌ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ تَحَوَّلَ إِلَى جَزَعٍ حِينَ مَضَى مِنَ اللَّيْلِ أَكْثَرُهُ وَخَمَدَتِ النَّارُ الَّتِي أَوْقَدَهَا ، فَلَمْ يُطِقْ صَبْرًا،وَخَرَجَ هَائِمًا فِي أَنْحَاءِ الغَابَةِ يُنَادِي بِصَوْتٍ مُلْتَاعٍ «أَلِيفْ... أَلِيفْ» ، فَلاَ يُجِيبُهُ سِوَى الصَّدَى... إِلَى أَنْ لاَحَتْ تَبَاشِيرُ الصَّبَاحِ، وَانْقَطَعَ رَجَــاؤُهُ فِي عَوْدَتِــهِ فَأَسْلَمَ أَمْرَهُ إِلَى اللهِ وَعَادَ إِلَى كُوخِهِ يَـائِسًا حَزِينًا .

أَمَّا «أَلِيف» فَقَدْ صَاحَبَ الغَزَالَةَ كَعَادَتِهِ، وَانْطَلَقَ فِي أَرْجَاءِ الغَابَةِ، وَرَاقَتْهُ الطَّبِيعَةُ





الزَّاهِيَة، وَالجَوُّ المشْرِقُ، فنَسِيَ نَفْسَهُ وَلَمْ يُفَكِّرْ فِي العَوْدَةِ إِلاَّ حِينَ جَاءَ الأَصِيلُ وَأَحَسَّ بِالجُوعِ يَلْسَعُ بَطْنَهُ، فَطَفِقَ يُنَادِي صَدِيقَتَهُ وَيُصَفِّرُ لَهَا عَلَى عَادَتِهِ كُلَّمَا أَزِفَ وَقْتُ الرُّجُوعِ، وَلما أَبْطَأَتْ فِي الحُضُورِ أَخَذَ يُكَرِّرُ النِّدَاءَ وَالصَّفِيرَ وَلَكِنْ دُونَ جَدْوَى، وَخَشِيَ أَنْ تَكُونَ قَدْ تَعَرَّضَتْ لِسُوءٍ فَأَسْرَعَ يَبْحَثُ عَنْهَا هُنَا وَهُنَاكَ...وَجَدَّ فِي البَحْثِ فَلَمْ يَتْرُكْ أَجَمَةً وَلاَ أَكَمَةً إِلاَّ فَتَّشَهَا، حَتَّى دَاخَلَهُ اليَأْسُ وَانْقَطَعَ أَمَلُهُ فِي العُثُورِ عَلَيْهَا، فَعَادَ أَدْرَاجَهُ، وَلَمْ يَكَدْ يَفْعَل ذَلِكَ حَتَّى فُوجِئَ بِأَسَدٍ رَابِضًا عَلَى الغَزَالَةِ وَقَدْ أَنْشَبَ فِيهَا مَخَالِبَهُ، وَعَمِلَ فِي جَسَدِهَا بِأَنْيَابِهِ نَهْشًا وَتَمْزِيقًا، وَمَا إِنْ لَحَظَ ذَلِكَ حَتَّى جُنَّ جُنُونُهُ وَكَادَ يَتَمَيَّزُ غَيْظًا، فَأَخَذَ يَسْتَرِقُ الخُطَى حَتَّى صَارَ مِنْهُ عَلَى بُعْدِ أَمْتَارٍ... وَبِسُرْعَةِ البَرْقِ وَبَرَاعَةِ الصَّائِدِ رَمَاهُ بِسَهْمٍ أَصَابَ مِنْهُ مَقْتَلاً، وَتَرَكَهُ يَتَخَبَّطُ فِي دَمِهِ، وَلَمْ يَشْفِ ذَلِكَ غُلَّهُ فَارْتَمَى عَلَيْهِ يَحُزُّ رَأْسَهُ وَيُعَلِّقُهُ فِي جِرَابِهِ، ثُمَّ قَرَّرَ أَنْ يَرْعَاهَا مَيِّتَةً كَمَا رَعَتْهُ حَيَّةً، فَاسْتَلَّ سَهْمَهُ وَانْهَمَكَ يُعِدُّ لَهَا قَبْرًا غَيْرَ عَابِئٍ بِالخُدُوشِ الَّتِي أُصِيبَتْ بِهَا يَدَاهُ، وَلَمْ يَكَدْ يَحْفِرُ كَثِيرًا حَتَّى اصْطَدَمَ بِشَيْءٍ صُلْبٍ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ ظَهَرَ فَإِذَا هُوَ غِطَاءٌ حَدِيدِيٌّ ضَخْمٌ، أَخَذَ يُحَاوِلُ رَفْعَه وَبَعْدَ جُهْدٍ وَعَنَاءٍ اسْتَطَاعَ زَحْزَحَتَهُ قَلِيلاً عَنْ مَكَانِهِ، فَبَرَزَ نُورٌ ضَعِيفٌ مِنَ الكُوَّةِ المفْتُوحَةِ شَجَّعَهُ عَلَى إِعَادَةِ المحَاوَلَةِ إِلَى أَنْ زَحْزَحَهُ تَمَامًا فَإِذَا هُوَ أَمَامَ مَدْرَجٍ طَوِيلٍ فَتَرَدَّدَ قَلِيلاً

وَخَامَرَتْهُ وَسَاوِسُ سَارَعَ بِطَرْدِهَا ثُمَّ أَخَذَ يَنْزِله بِحَذَرٍ إِلَى أَنْ وَجَدَ نَفْسَهُ دَاخِلَ دِهْلِيزٍ رَطْبٍ مُظْلِمٍ أَخَذَ يَقْطَعُهُ مُسْتَعِينًا بِيَدَيْهِ، وَالصَّمْتُ الرَّهِيبُ يَلُفُّهُ، وَفَجْأَةً أَضَاءَ المَكَانَ نُورٌ غَرِيبٌ أَعْقَبَتْهُ صَيْحَةٌ حَادَّةٌ بَثَّتِ الفَزَعَ فِي نَفْسِهِ، فَتَسَمَّرَ فِي مَكَانِهِ يَسْتَرِق النَّظَرَ بَحْثًا عَنْ مَصْدَرِهَا إِلَى أَنْ ظَهَرَتْ أَمَامَهُ عَجُوزٌ لاَ يَعْرِفُ لهَا طُولاً وَلاَ عَرْضًا، يَنْبَعِثُ شَرَرٌ مِنْ عَيْنَيْهَا وَفِي يَدِهَا سَوْطٌ تُلَوِّحُ بِهِ فِي الهَوَاءِ. نَظَرَتْ إِلَيْهِ شَزَرًا وَقَالَتْ :

- أَلَمْ تَكْفِكَ الأَرْضُ وَسَطْحهَا حَتَّى تَنْزِلَ إِلَى أَعْمَاقِهَا وَتُقْلِقَنِي ؟

ثُمَّ أَهْوَتْ عَلَيْهِ بِسَوْطِهَا ... وَلما رَأَتْهُ وَاقِفًا كَالصَّخْرَةِ تَرَاخَتْ



يَدُهَا وَاقْتَرَبَتْ مِنْهُ وَعَلَى فَمِهَا الأَدْرَدِ شِبْهُ ابْتِسَامَةٍ ، ثُمَّ قَالَتْ لَهُ بِمَكْرٍ :

- أَرَاكَ غَيْرَ هَيَّابٍ ... أَمْ أَنَّكَ مُقِرٌّ بِذَنْبِكَ فَاسْتَسْلَمْتَ لِمَصِيرِكَ ؟

فَأَجَابَهَا بِهُدُوءٍ لَمْ تَعْهَدْهُ مِمَّنْ كَانَ فِي مِثْلِ مَوْقِفِهِ :

- لَسْتُ مُذْنِبًا يَا أُمَّاه، وَلَمْ يَكَدْ يُتِمُّ جُمْلَتَهُ حَتَّى انْتَفَضَتْ كَالْمَسْعُورَةِ وَارْتَمَتْ عَلَيْهِ بِسَوْطِهَا وَهْيَ تَصْرُخُ فِيهِ أَتَسْخَرُ مِنِّي ؟ أَتَهْزَأُ بِي ؟ إِلَى أَنْ كَلَّتْ يَدَاهَا ، فَتَهَالَكَتْ عَلَى الأَرْضِ تَنْظُرُ فِي تَشَفٍّ إِلَى الدِّمَاءِ النَّازِفَةِ مِنْ سَائِرِ جِسْمِهِ ثُمَّ اعْتَرَتْهَا نَوْبَةُ بُكَاءٍ حَادَّةٌ أَنْسَتْ (أَلِيفا) كُلَّ آلامِهِ ، وَأَحَسَّ بِالشَّفَقَةِ نَحْوَهَا ،فَاقْتَرَبَ مِنْهَا وَهَمَسَ فِي أُذُنِهَا :

- أُقْسِمُ لَكِ أَنِّي لَمْ أَقْصِدِ السُّخْرِيَةَ مِنْكِ ، وَلَكِنَّ حِرْمَانِي مِنْ أُمِّي جَعَلَنِي أَنْطِقُ بِالْكَلِمَةِ دُونَ وَعْيٍ مِنِّي . ثُمَّ قَصَّ عَلَيْهَا قِصَّةَ حَيَاتِهِ كُلَّهَا وَمَا إِنْ انْتَهَى مِنْ سَرْدِهَا حَتَّى هَدَأَ غَضَبُهَا ، وَعَادَتْ إِلَيْهَا صُورَتُهَا الطَّبِيعِيَّةُ فَإِذَا هِيَ امْرَأَةٌ عَادِيَةٌ طَيِّبَةُ القَلْبِ لَمْ تَنْقَلِبْ شَرِسَةً مُتَوَحِّشَةً - كَمَا أَكَّدَتْ لَهُ - إِلاَّ مُنْذُ اسْتَبَدَّ بِهَا - مِنْ سِنِينَ - مَارِدٌ رَهِيبٌ ، انْتَزَعَ ابْنَهَا وَفَلْذَةَ كَبِدِهَا وَحَبَسَهَا فِي هَذَا المَكَانِ لأَنَّهَا لَمْ تَرْضَ بِهِ زَوْجًا رَغْمَ مَا أَغْرَاهَا بِهِ مِنَ الذَّهَبِ وَالجَوَاهِرِ .

وَرَجَتْهُ فِي آخِرِ الأَمْرِ أَنْ يَبْقَى بِجِوَارِهَا يُؤْنِسُ وِحْدَتَهَا وَيَتَمَتَّعُ بِتِلْكَ النَّفَائِسِ وَالكُنُوزِ.

وَلَكِنَّ الشَّابَّ الَّذِي أَحَسَّ بِفَيْضٍ جَارِفٍ مِنَ العَطْفِ وَالحَنَانِ نَحْوَ تِلْكَ الأُمِّ الثَّكْلَى لَمْ يَنْسَ وَالِدَهُ وَمَا سَيُسَبِّبُهُ لَهُ غِيَابُهُ مِنْ مَتَاعِبَ وَآلاَمٍ، فَفَكَّرَ مَلِيّاً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَأَجَابَهَا.



- إِنَّ لِي أَبًا وَهُوَ وَحِيدٌ، وَلاَ أَدْرِي مَا سَيَحُلُّ بِهِ إِنْ لَمْ أَعُدْ إِلَيْهِ، وَلَكِنِّي أَعِدُكِ إِذَا أَعَنْتِنِي، بِأَنِّي سَأَبْذُلُ كُلَّ مَا فِي وِسْعِي لِأَجْمَعَ شَمْلَكِ بِٱبْنِكِ.

وَأكْبَرَتْ فِيهِ صِدْقَ اللَّهْجَةِ وَحَرَارَةَ الإِخْلاَصِ، فَخَافَتْ عَلَيْهِ، وَأَفْهَمَتْهُ أَنَّهُ يَجْهَلُ المَخَاطِرَ الجَمَّةَ الَّتِي يُعَرِّضُ لَهَا نَفْسَهُ وَالَّتِي هِيَ فَوْقَ طَاقَةِ أَيِّ بَشَرٍ ، ثُمَّ قَالَتْ لَهُ :

- يَكْفِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ مَكَانَ ابْنِي يَبْعُدُ مَسِيرَةَ شَهْرٍ عَلَى أَجْوَدِ الخُيُولِ ، وَأَنَّ عَلَيْكَ - إِذَا كُتِبَتْ لَكَ الحَيَاةُ - أَنْ تَتَسَلَّقَ جَبَلاً شَاهِقًا فِي قِمَّتِهِ سُورٌ قَدِيمٌ يَقُومُ عَلَى حِرَاسَتِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ حَيَوَانٌ بَلَغَ مِنْ ضَخَامَتِهِ أَنَّهُ يَمُدُّ إِحْدَى يَدَيْهِ فَيَبْحَثُ فِي السُّهُولِ المُجَاوِرَةِ لِسَفْحِ الجَبَلِ عَنْ طَعَامِهِ مِنْ وُحُوشِ الغَابَاتِ ، وَهُوَ يَسْتَعِينُ فِي اللَّيْلِ بِأَشِعَّةٍ غَرِيبَةٍ تَنْبَعِثُ مِنْ عَيْنَيْهِ فَتُضِيءُ مَا حَوْلَهُ مِنْ قِمَمٍ وَسُهُولٍ.

وَلَمَّا انْتَهَتْ مِنْ وَصْفِهَا - وَهُوَ شَاخِصٌ - قَالَتْ لَهُ :

- أَرَأَيْتَ الآنَ لِمَاذَا لاَ أُرِيدُ تَعْرِيضَكَ لِمَوْتٍ مُحَقَّقٍ، ثُمَّ نَهَضَتْ فَغَابَتْ قَلِيلاً وَعَادَتْ إِلَيْهِ بِجِرَابٍ مَمْلُوءٍ ذَهَبًا قَدَّمَتْهُ لَهُ وَهِيَ تَقُولُ : عُدْ يَا بُنَيَّ إِلَى وَالِدِكَ فَلاَ شَكَّ أَنَّهُ سَيُجَنُّ لِغِيَابِكَ .

شَكَرَ أَلِيف المَرْأَةَ عَلَى صَنِيعِهَا ، ثُمَّ وَدَّعَهَا بَعْدَ أَنْ وَعَدَهَا بِأَنْ يَعْمَلَ كُلَّ مَا فِي وُسْعِهِ لإِنْقَاذِ ابْنِهَا ، وَلَمْ يَكَدْ يَطَأُ سَطْحَ الأَرْضِ حَتَّى انْطَلَقَ يُسَابِقُ الطُّيُورَ، فَلَمَّا وَصَلَ الكُوخَ وَشَاهَدَ أَبَاهُ عَلَى حَالٍ يُرْثَى لَهَا مِنَ الحُزْنِ ارْتَمَى عَلَيْهِ يُعَانِقُهُ وَيُقَبِّلُهُ ثُمَّ حَكَى لَهُ الحِكَايَةَ كُلَّهَا وَنَشَرَ أَمَامَهُ مَا يَحْمِلُهُ مِنَ الذَّهَبِ وَالجَوَاهِرِ النَّفِيسَةِ فَنَسِيَ

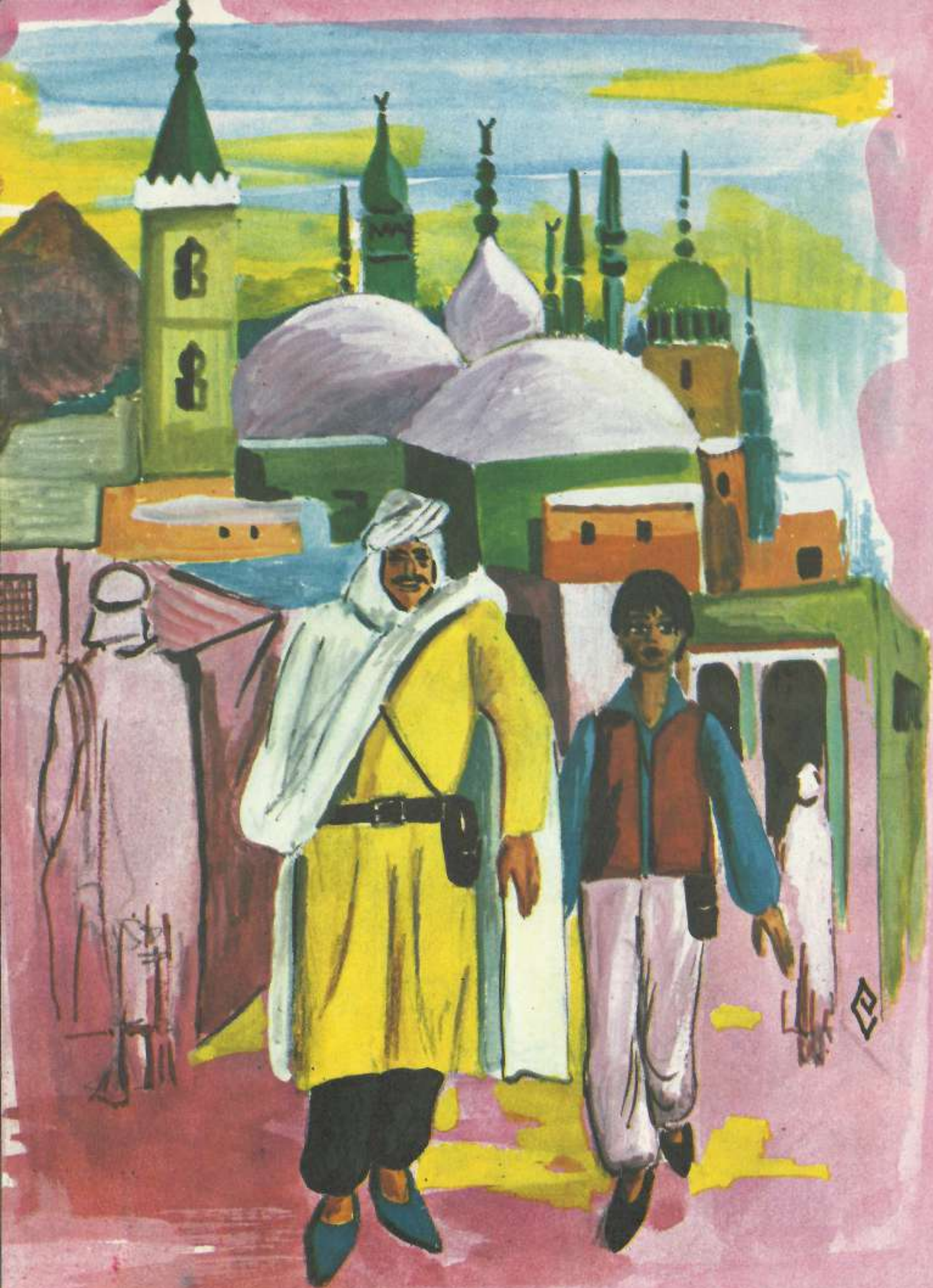
الأَبُ حُزْنَهُ وَوقَارهُ وَأَخَذَ يَرْقصُ فِي أَرْجَاءِ الكُوخ يُحَاوِلُ تَهْدِيمَهُ بِيَدَيْهِ النَّحِيلَتَيْنِ وَهْوَ يُرَدِّدُ « مَا أَكْرَمَكَ يَارَبِّ.... مَا أَكْرَمَكَ يَارَبِّ »

ثُمَّ التَفَتَ إِلَى ابْنِهِ وَقَالَ لَهُ « حَانَ الآنَ أَنْ نَعُودَ إِلَى بَلَدِنَا الذِّي أُطْرِدْنَا مِنْهُ لِفَقْرِنَا » وَلَمْ يَأْتِ اللَّيْلُ إِلاَّ وَهُمَا يَطْرُقَانِ بَابَ المدِينَةِ وَيَدْخُلاَنِهَا كَمَا يَدْخُلُهَا الأَعْيَانُ .

وَلَمَّا طَلَعَ الصَّبَاحُ ، تَوَجَّهَ «أَلِيف» إِلَى السُّوقِ فَاشْتَرَى مَا رَاقَهُ مِنْ فَاخِرِ اللِّبَاسِ ، وَعَادَ إِلَى أَبِيهِ ، وَلَمَّا اطْمَأَنَّا لِمَظْهَرَيْهِمَا أَخَذَا يَتَجَوَّلاَنِ فِي الأَسْوَاقِ يَتَّفِقَانِ مَعَ البَنَّائِينَ وَالنَجَّارِينَ لِبِنَاءِ قَصْرٍ فَخْمٍ لَمْ يَنْقَضِ زَمَنٌ طَوِيلٌ حَتَّى كَانَ يَقُومُ شَامِخًا فِي قَلْبِ المدِينَةِ، وَأَصْبَحَ حَدِيثَ أَهْلِهَا وَقِبْلَةَ أَعْيَانِهَا يَقْضُونَ فِيهِ السَّهَرَاتِ المُمْتِعَةَ ، فَيَسْمَرُونَ حَتَّى سَاعَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ مِنَ اللَّيْلِ ثُمَّ يُوَدِّعُونَ صَاحِبَ القَصْرِ وَوَلَدِهِ .

وَأَخْلَدَ «أَلِيف» إِلَى الرَّاحَةِ وَحَيَاةِ البَذَخِ التِّي نَعِمَ بِهَا هُوَ وَأَبُوهُ بَعْدَ طُولِ شَقَاءٍ وَحَمِدَا اللهَ عَلَى اليُسْرِ الذِّي بَدَّلَ بِهِ عُسْرَهُمَا .

وَذَاتَ لَيْلَةٍ ، وَالقَصْرُ هَادِىءٌ وَكُلُّ سُكَّانِهِ نِيَام ،اسْتَيْقَظَ «أَلِيف» فَزِعًا عَلَى هَاتِفٍ يَهْتِفُ بِهِ « قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ »،وَجَاءَهُ أَبُوهُ حِينَ سَمِعَ هَذَيَانَهُ يَسْتَفْسِرُهُ عَمَّا حَدَثَ فَقَصَّ عَلَيْهِ مَاكَانَ وَعَدَ بِهِ المرْأَةَ دُونَ أَنْ يُفَكِّرَ فِي إِنْجَازِ مَا وَعَدَ .



لَبِثَ أَبُوهُ صَامِتًا حِينًا مِنَ الزَّمَنِ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ بِبُطْءٍ وَقَال :

- وَلَدِي العَزِيز إِنَّكَ أَغْلَى عِنْدِي مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَآخِرُ مَا بَقِيَ لِي فِي هَذِهِ الحَيَاةِ ، وَإِن مَوْتِي أَهْــوَنُ عَلَيَّ مِنْ فِرَاقِكَ ، وَلكِنَّنِي أَكْرَهُ الجُحُودَ وَنُكْثَ الوَعْدِ .

سَافِرْ تَحْرُسْكَ رِعَايَةُ اللهِ، وَلْيَمُدَّنِي بِالصَّبْرِ عَسَى أَنْ يَجْمَعَنِي بِكَ فِي أَسْعَدِ الأَوْقَاتِ. وَبَيْنَمَا كَانَتِ النُّجُومُ تَخْتَفِي ، وَضِيَاءُ الفَجْرِ يَلُوحُ ، وَصِيَاحُ الدِّيَكَةِ يَتَعَالَى كَانَ «أَلِيف» يُسْرِج أَعَزَّ جِيادِهِ بَعْدَ أَنْ أَعَدَّ زَادًا يَكْفِيه،وَجِرَابًا مَلأَهُ بِأَجْوَدِ السِّهَامِ ، ثُمَّ وَدَّعَ أَبَاهُ وَدَاعًا حَارًا وَٱمْتَطَى صَهْوَةَ جَوَادِهِ،وَمَضَى يَطْوِي الأَرْضَ طَيًّا .

وَمَرَّتِ الأَيَّامُ وَهُوَ يَسِيرُ لَيْلاً نَهَارًا،وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الرَّاحَةِ إِلاَّ نَصِيبٌ ضَئِيلٌ . كَانَ كُلَّ هَمِّهِ أَنْ يَبْلُغَ مَأْرَبَه فِي أَقَلِّ مُدَّةٍ مُمْكِنَةٍ ، وَلذَلِكَ لَمْ يَشْعُرْ بِالحَيَاةِ تَتَبَدَّلَ مِنْ حَوْلِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، فِي الأَرْضِ ، فِي السَّمَاءِ ، فِي الطُّيُورِ ، فِي الأَشْجَارِ ، كَمَا لَمْ يُحِسَّ بِزَادِهِ يَنفَدُ إِلاَّ حِينَ أَحَسَّ بِالجُوعِ يَمْنَعُهُ مِنْ مُوَاصَلَةِ السَّيْرِ فَنَزَلَ يَلْتَمِسُ لِنَفْسِهِ نَصِيبًا مِنْ طَعَامٍ وَرَاحَةٍ ، وَفَكَّرَ أَنْ يَجُوسَ خِلاَلَ الغَابَةِ بَحْثًا عَنْ صَيْدٍ يَسُدُّ رَمَقَهُ. إِلاَ أَنَّ التَّعَبَ الشَّدِيدَ الذِّي أَنْهَكَهُ أَجْبَرَهُ أَنْ يَبِيتَ عَلَى الطَّوَى فِي انْتِظَارِ الصَّبَاحِ فَرَبَطَ حِصَانَهُ إِلَى شَجَرَةٍ ، وَتَوَسَّدَ جِرَابَيْهِ،ثُمَّ التَفَّ فِي عَبَاءَتِهِ،وَاسْتَسْلَمَ لِنَوْمٍ لَذِيذٍ لَمْ يَنْعَمْ



بِهِ مُنْذُ اليَوْمِ الذِّي سَافَرَ فِيهِ.

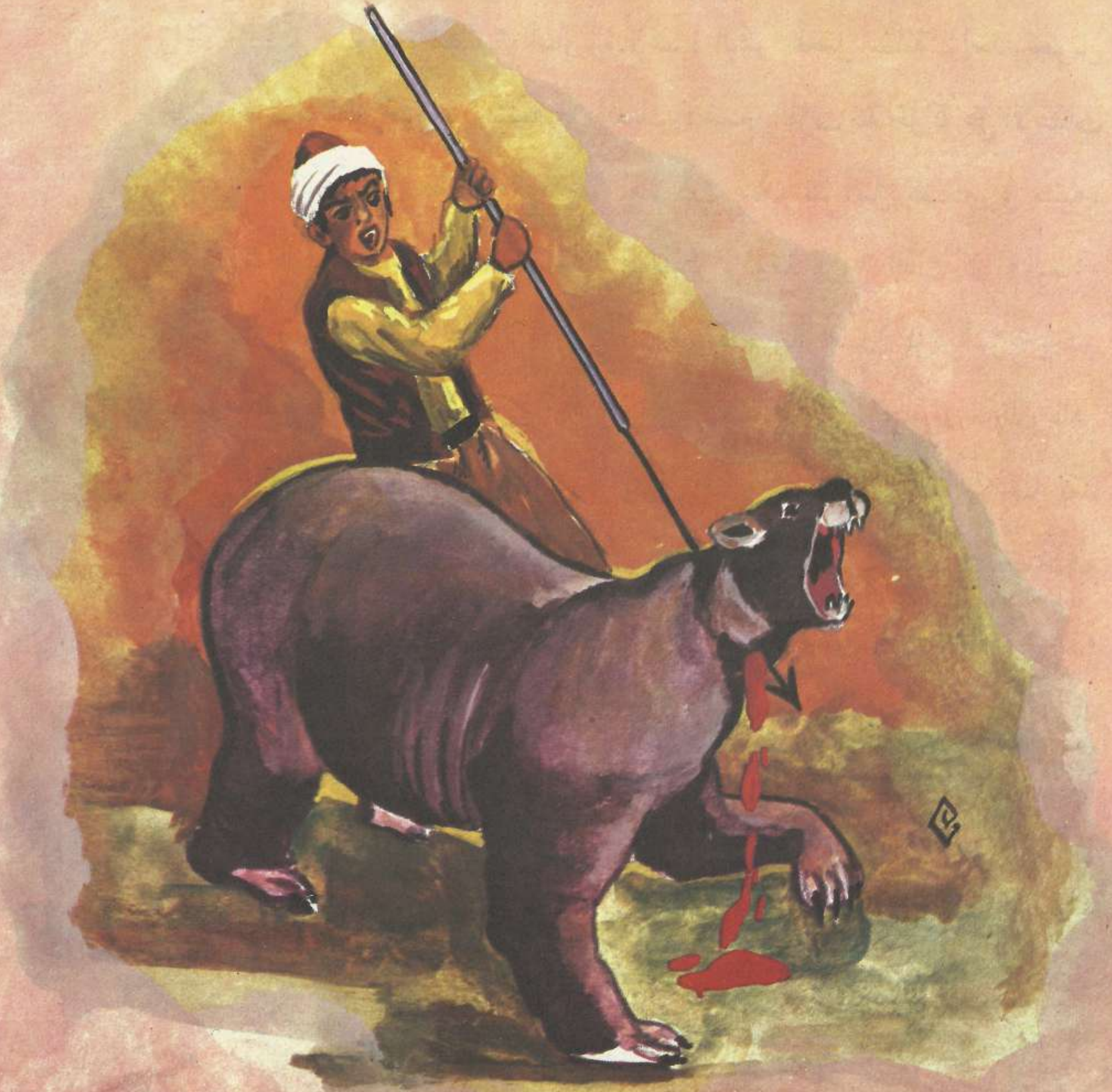
وَحِينَ أَحَسَّ بِالضِّيَاءِ يَنْتَشِرُ حَوَالَيْهِ، وَيُجْبِرُهُ عَلَى الاسْتِيقَاظِ، نَهَضَ مُتَثَاقِلاً يعجب لِسُرْعَةِ انْقِضَاءِ اللَّيْلِ، لَكِنَّهُ مَا كَادَ يَسْتَوِي جَالِسًا حَتَّى اعْتَرَاهُ اسْتِغْرَابٌ شَدِيدٌ لِانْتِشَارِ الظَّلَامِ مَعَ أَنَّ المَكَانَ كَانَ كَأَنَّهُ مَيْدَانُ فَرَحٍ زُيِّنَ بِفَوَانِيسَ وَمَصَابِيحَ مُنِيرَةٍ، عِنْدَ ذَلِكَ فَقَطْ فَهِمَ أَنَّهُ وَصَلَ إِلَى مَقْصِدِهِ، وَأَنَّ مُهِمَّتَهُ بَدَأَتْ مِنَ الآنَ، وَمَا هَذَا النُّورُ إِلاَّ ذَاكَ الشُّعَاعُ الذِّي حَدَّثَتْهُ عَنْهُ المَرْأَةُ وَالذِّي يُرْسِلُهُ حَيَوَانُ الجَبَلِ لَيْلاً لِيَسْتَعِينَ بِهِ فِي الحِرَاسَةِ، فَقَرَّرَ أَنْ يَنْتَظِرَ الصَّبَاحَ لِلشُّرُوعِ فِي عَمَلِهِ، وَلِكَيْلاَ يَفْتَضِحَ أَمْرُهُ كَمَّمَ حِصَانَهُ وَأَخْفَاهُ تَحْتَ خَمِيلَةٍ.

وَمَا إِنْ بَدَأَتْ تَبَاشِيرُ الصَّبَاحِ تَظْهَرُ فِي الأُفُقِ، حَتَّى كَانَ «أَلِيف» يَقُومُ بِجَوْلَةٍ سِرِّيَّةٍ بَيْنَ الأَشْجَارِ لِيَسْتَكْشِفَ المَكَانَ عَسَاهُ يَعْثُرُ عَلَى مَنْفَذٍ أَمِينٍ يَسْتَطِيعُ الوُصُولَ مِنْهُ إِلَى هَدَفِهِ دُونَ أَنْ يَتَفَطَّنَ لَهُ الحَيَوَانُ، لَكِنَّهُ سُرْعَانَ مَا نَزَعَ هَذِهِ الفِكْرَةَ مِنْ رَأْسِهِ لِما فِيهَا مِنْ أَخْطَارٍ جَمَّةٍ، وَحَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ أَنْ يَرْمِيَ الحَيَوَانَ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ مِنْ سِهَامٍ عَسَى أَنْ يُصِيبَ بَعْضُهَا مِنْهُ مَقْتَلاً، وَلَكِنَّ نَظْرَةً وَاحِدَةً إِلَى الحَيَوَانِ وَضَخَامَتِهِ أَقْنَعَتْهُ بِالعُدُولِ عَنْ هَذِهِ الفِكْرَةِ وَعَدَمِ جَدْوَاهَا، فَعَادَ إِلَى مَكْمَنِهِ يَقْدَحُ زِنَادَ فِكْرِهِ وَيَبْحَثُ عَنْ حِيلَةٍ أُخْرَى مَأْمُونَةِ العَوَاقِبِ.

بِهِ مُنْذُ اليَوْمِ الذِّي سَافَرَ فِيهِ.

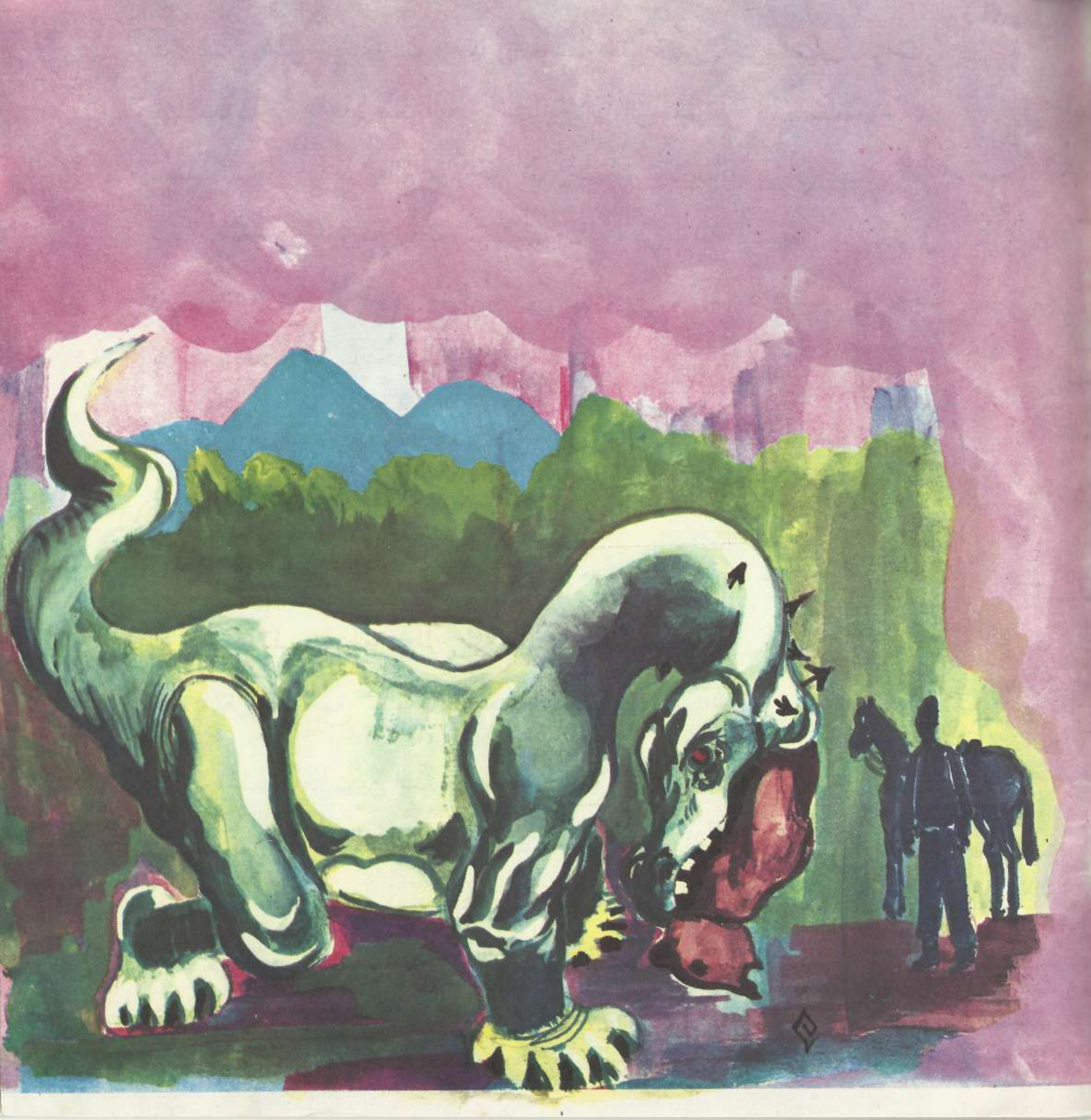
وَحِينَ أَحَسَّ بِالضِّيَاءِ يَنْتَشِرُ حَوَالَيْهِ، وَيُجْبِرُهُ عَلَى الاسْتِيقَاظِ، نَهَضَ مُتَثَاقِلاً يعجب لِسُرْعَةِ انْقِضَاءِ اللَّيْلِ، لَكِنَّهُ مَا كَادَ يَسْتَوِي جَالِساً حَتَّى أَعْتَرَاهُ اسْتِغْرَابٌ شَدِيدٌ لِانْتِشَارِ الظَّلاَمِ مَعَ أَنَّ المَكَانَ كَانَ كَأَنَّهُ مَيْدَانُ فَرَحٍ زُيِّنَ بِفَوَانِيسَ وَمَصَابِيحَ مُنِيرَةٍ، عِنْدَ ذَلِكَ فَقَطْ فَهِمَ أَنَّهُ وَصَلَ إِلَى مَقْصِدِهِ، وَأَنَّ مُهِمَّتَهُ بَدَأَتْ مِنَ الآنَ، وَمَا هَذَا النُّورُ إِلاَّ ذَاكَ الشُّعَاعُ الذِّي حَدَّثَتْهُ عَنْهُ المَرْأَةُ وَالذِّي يُرْسِلُهُ حَيَوَانُ الجَبَلِ لَيْلاً لِيَسْتَعِينَ بِهِ فِي الحِرَاسَةِ، فَقَرَّرَ أَنْ يَنْتَظِرَ الصَّبَاحَ لِلشُّرُوعِ فِي عَمَلِهِ، وَلِكَيْلاَ يَفْتَضِحَ أَمْرُهُ كَمَّمَ حِصَانَهُ وَأَخْفَاهُ تَحْتَ خَمِيلَةٍ.

وَمَا إِنْ بَدَأَتْ تَبَاشِيرُ الصَّبَاحِ تَظْهَرُ فِي الأُفُقِ، حَتَّى كَانَ «أَلِيف» يَقُومُ بِجَوْلَةٍ سِرِّيَّةٍ بَيْنَ الأَشْجَارِ لِيَسْتَكْشِفَ المَكَانَ عَسَاهُ يَعْثُرُ عَلَى مَنْفَذٍ أَمِينٍ يَسْتَطِيعُ الوُصُولَ مِنْهُ إِلَى هَدَفِهِ دُونَ أَنْ يَتَفَطَّنَ لَهُ الحَيَوَانُ، لَكِنَّهُ سُرْعَانَ مَا نَزَعَ هَذِهِ الفِكْرَةَ مِنْ رَأْسِهِ لِمَا فِيهَا مِنْ أَخْطَارٍ جَمَّةٍ، وَحَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ أَنْ يَرْمِيَ الحَيَوَانَ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ مِنْ سِهَامٍ عَسَى أَنْ يُصِيبَ بَعْضُهَا مِنْهُ مَقْتَلاً، وَلَكِنَّ نَظْرَةً وَاحِدَةً إِلَى الحَيَوَانِ وَضَخَامَتِهِ أَقْنَعَتْهُ بِالعُدُولِ عَنْ هَذِهِ الفِكْرَةِ وَعَدَمِ جَدْوَاهَا، فَعَادَ إِلَى مَكْمَنِهِ يَقْدَحُ زِنَادَ فِكْرِهِ وَيَبْحَثُ عَنْ حِيلَةٍ أُخْرَى مَأْمُونَةِ العَوَاقِبِ.



وَلَبِثَ سَاعَاتٍ وَقَدْ اسْتَبَدَّ بِهِ التَّفْكِيرُ ، حَتَّى نَسِيَ نَفْسَهُ فَلَمْ يَعُدْ يُحِسُّ بِحَاجَةٍ إِلَى رَاحَةٍ أَوْ أَكْلٍ ، وَفَجْأَةً انْطَلَقَتْ أَسَارِيرُهُ وَغَمَرَهُ الْبِشْرُ فَحَمَلَ سِهَامَهُ وَأَخَذَ يَجُوسُ خِلَالَ الْغَابَةِ مُتَيَقِّظًا حَذِرًا ، وَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ سَمِعَ بِالْقُرْبِ مِنْهُ حَرَكَةً عَلَى الأَعْشَابِ الْيَابِسَةِ أَخَذَ يَتَطَلَّعُ إِلَى مَصْدَرِهَا، فَإِذَا هُوَ أَمَامَ دُبٍّ ضَخْمٍ قَدْ أَقْبَلَ يَتَهَادَى فِي مِشْيَتِهِ، فَانْتَحَى مَكَانًا نَجِيًّا ،وَأَمْسَكَ سَهْمَهُ وَلَبِثَ يَنْتَظِرُ ، وَمَعَ بُرُوزِ الدُّبِّ كَانَ «أَلِيف» يُعَاجِلُهُ بِضَرْبَةٍ قَاتِلَةٍ تَخَبَّطَ عَلَى إِثْرِهَا ثُمَّ سَقَطَ صَرِيعًا ، وَلَمَّا اطْمَأَنَّ لِمَوْتِهِ أَسْرَعَ يَحْشُو جِسْمَهُ بِكُلِّ مَا مَعَهُ مِنْ سِهَامٍ ، ثُمَّ أَخَذَ يُدَحْرِجُهُ أَمَامَهُ حَتَّى أَوْصَلَهُ إِلَى مَكَانٍ ظَاهِرٍ فَتَرَكَهُ وَاخْتَفَى بَيْنَ الأشْجَارِ يُرَاقِبُ نَتِيجَةَ عَمَلِهِ وَقَلْبُهُ يَخْفِقُ لَمَّا شَاهَدَ حَيَوَانَ الْجَبَلِ يَمُدُّ إِحْدَى يَدَيْهِ بَحْثًا عَنْ طَعَامِهِ، وَيَعْثُرُ عَلَى الدُّبِّ فَيَلْتَقِطُهُ وَيَرْفَعُهُ وَلَمْ يَكَدْ يُطْبِق عَلَيْهِ فَكَّيْهِ حَتَّى صَرَخَ صَرْخَةً حَادَّةً اهْتَزَّ لَهَا الْجَبَلُ ، لَقَدِ انْغَرَزَتِ السِّهَامُ فِي حَلْقِهِ، فَسَالَتْ دِمَاؤُهُ كَفَيْضٍ مِنْ نَهرٍ وَأَخَذَ يَنْتَفِضُ انْتِفَاضَاتٍ عَنِيفَةً ، وَيَدُورُ حَوْلَ نَفْسِهِ تَارَةً يَعَضُّ ذَيْلَهُ، وَطَوْرًا يَضْرِبُ رَأْسَهُ عَلَى الصُّخُورِ ، وَكَثُرَ رُغَاؤُهُ وَهَيَجَانُهُ فَخَرَجَ مِنَ السُّورِ مَارِدٌ يَسْتَجْلِي الْخَبَرَ. فَهَجَمَ عَلَيْهِ الْحَيَوانُ فِي حَرَكَةٍ يَائِسَةٍ مَجْنُونَةٍ،وَالْتَقَمَهُ بِسُرْعَةٍ عَلَّهُ يُسَكِّن بِهِ أَوْجَاعَهُ،وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يُجْدِهِ نَفْعًا فَتَدَحْرَجَ إِلَى أَسْفَلِ الْجَبَلِ جُثَّةً هَامِدَةً .

لَمْ يَكَدْ «أَلِيف» يَلْحَظُ ذَلِكَ حَتَّى اعْتَرَتْهُ فَرْحَةٌ شَدِيدَةٌ خَرَجَ عَلَى إِثْرِهَا مِنْ مَكْمَنِهِ يَعْدُو نَحْوَ الْجَبَلِ ، وَلِفَرْطِ غِبْطَتِهِ لَمْ يَشْعُرْ بِأَيِّ إِجْهَادٍ وَهُوَ يَتَسَلَّقُ صُخُورَهُ إِلَى أَنْ



بَلَغَ القِمَّةَ ، فَأَسْرَعَ يَجْتَازُ السُّورَ وَمَا إِنْ تَوَسَّطَهُ حَتَّى دَهِشَ لِكَثْرَةِ الغُرَفِ ، وَاحْتَارَ بِأَيِّهَا يَبْدَأُ، لَكِنَّ وَاحِدَةً فَقَطْ أَثَارَتِ اهْتِمَامَهُ لِأَنَّهَا الوَحِيدَةُ الَّتِي كَانَتْ مُغْلَقَةً بِإِحْكَامٍ فَقَصَدَهَا لِتَوِّهِ ، وَأَخَذَ يُعَالِجُ مِزْلاَجَهَا حَتَّى خَلَعَهُ ، وَلَمْ يَكَدْ يُوَارِبُ البَابَ حَتَّى صَدَّتْهُ رَائِحَةٌ كَرِيهَةٌ وَأَنِينٌ يُقَطِّعُ نِيَاطَ القُلُوبِ ، فَأَطَلَّ بِرَأْسِهِ فَإِذَا هُوَ أَمَامَ شَابٍّ فِي مِثْلِ سِنِّهِ، عَرَفَ مِنْ حَالَتِهِ السَّيِّئَةِ أَنَّهُ ابْنُ المَرْأَةِ وَرَهِينَةُ المَارِدِ،فَأَسْرَعَ إِلَيْهِ وَأَخَذَ يُلاَطِفُهُ وَيُحَادِثُهُ حَتَّى اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ.

وَمَا إِنْ عَرَفَ الشَّابُّ مَقْصِدَ «أَلِيف» حَتَّى ارْتَمَى عَلَيْهِ يُعَانِقُهُ وَيَشْكُرُهُ ، لَكِنَّ «أَلِيفا» لَمْ يَشَأْ إِضَاعَةَ الوَقْتِ فَأَمْسَكَهُ مِنْ يَدِهِ وَأَسْرَعَ بِمُغَادَرَةِ المَكَانِ ، وَمَا إِنْ وَصَلاَ إِلَى الجَوَادِ حَتَّى رَكِبَاهُ وَانْطَلَقَا يُسَابِقَانِ الرِّيحَ .

لَمْ يُفَكِّرْ «أَلِيف» فِي العَوْدَةِ الَى المَدِينَةِ لِيُطَمْئِنَ أَبَاهُ ، بَلْ فَضَّلَ ان يَتَوَجَّهَ رَأْسًا إِلَى تِلْكَ الأُمِّ المَحْرُومَةِ فَيَجْمَعَ شَمْلَهَا بِابْنِهَا بَعْدَ طُولِ فِرَاقٍ وَيُبَدِّدَ أَحْزَانَهَا .

كَادَتِ المَـــرْأَةُ تَطِيرُ مِنْ شِدَّةِ الفَرْحَةِ فَارْتَمَتْ عَلَى ابْنِهَا تُعَانِقُهُ وَتُقَبِّلُهُ وَتَضُمُّهُ إِلَى صَدْرِهَا بِلَهْفَةِ المُشْتَاقِ ، وَتَتَحَسَّسُ جِسْمَهُ وَكَأَنَّهَا تَوَدُّ أَنْ تُؤَكِّدَ لِنَفْسِهَا أَنَّهَا فِي يَقْظَةٍ .
أَمَّا «أَلِيف» فَقَدْ أَثَّرَ فِيهِ ذَلِكَ المَنْظَرُ وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يُفْسِدَ عَلَيْهِمَا فَرْحَتَهُمَا ، فَانْتَحَى رُكْنًا مِنَ الدِّهْلِيزِ وَأَخَذَ يَرْقُبُهُمَا وَالفَرْحَةُ تَعْلُو شَفَتَيْهِ .



وَانْتَبَهَتِ المَرْأَةُ لِوُجُودِهِ فَتَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ تَشْكُرُهُ بِحَرَارَةٍ عَلَى مَا بَذَلَهُ فِي سَبِيلِ إِسْعَادِهَا، وَتَأَسَّفَتْ لِعَجْزِهَا عَلَى مُكَافَأَتِهِ، لَكِنَّ «أَلِيفًا» قَاطَعَهَا بِقَوْلِهِ:

تَسْتَطِيعِينَ أَيَّتُهَا السَّيِّدَةُ أَنْ تُقَدِّمِي لِي مُكَافَأَةً كُنْتُ أَتَمَنَّاهَا مِنْ زَمَانٍ بَعِيدٍ.

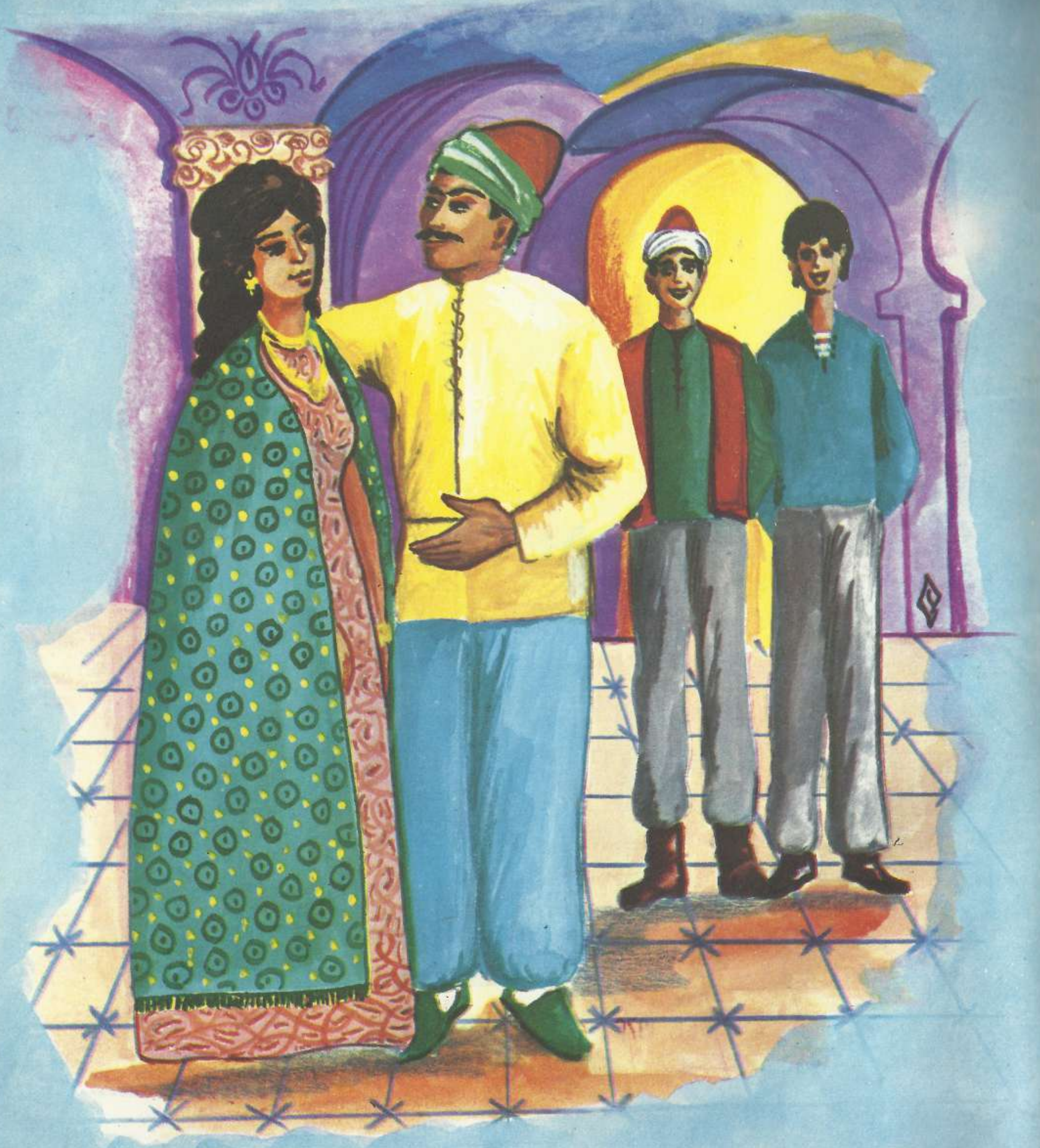
- أَكُونُ سَعِيدَةً لَوْ حَقَّقْتُهَا لَكَ يَابُنَيَّ، فَلَقَدْ خَاطَرْتَ بِنَفْسِكَ، وَعَرَّضْتَ حَيَاتَكَ لِلتَّلَفِ، فَلاَ يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ أُجَازِيَكَ وَلَوْ بِحَيَاتِي.

- أَرْجُو أَنْ تَقْبَلِي أَنْ تَكُونِي أُمِّي وَهَذَا أَخِي، وَتَأْتِيَا لِتَعِيشَا مَعَنَا فِي قَصْرِنَا بِالمَدِينَةِ نَقُومُ عَلَى خِدْمَتِكِ، وَتَكُونِي أُمًّا لِي وَلأَخِي هَذَا.

فَنَطَقَتْ هِيَ وَابْنُهَا بِصَوْتٍ وَاحِدٍ: «نِعْمَ الرَّأْيُ، نِعْمَ مَاطَلَبْتَ».

وَلاَ تَسَلْ عَنْ فَرْحَةِ الأَبِ وَغِبْطَتِهِ، وَهُوَ يَرَى وَلَدَهُ يَعُودُ إِلَيْهِ سَلِيمًا، كَمَا كَانَ سُرُورُهُ أَشَدَّ حِينَ قَدَّمَ إِلَيْهِ المَرْأَةَ وَوَلَدَهَا، وَحَكَى لَهُ مَااعْتَزَمَهُ بِشَأْنِهِمَا، فَأَقَامَ حَفْلاً بَهِيجًا وَزَّعَ فِيهِ صُنُوفَ الأَطْعِمَةِ وَأَفْخَرَ الحَلَوِيَّاتِ.

وَفِي نِهَايَةِ السَّهْرَةِ التَفَتَ إِلَى ابْنِهِ وَقَالَ لَهُ: «لاَتَنْسَ الغَزَالَةَ فَلَوْلاَهَا لَمَا كُنَّا الآنَ فِي هَذَا النَّعِيمِ»



الثمن : 0,350 د.ت